قبسات

كلمة الأمة

□□ إن الجهود والإمكانات والدعوات إلى النهوض بالأمة المسلمة إذا لم تتوفر لها الشروط الفنية اللازمة من الحسابات الدقيقة، والإدراك الواعي، والاختبارات الدائمة، والبصارة النافذة للواقع وكيفية التعامل معه لتحقيق الأهداف ... سوف تنقلب إلى جهود ضائعة، وإمكانات مبعثرة، وحركات غير مجدية تساهم بشكل أو بآخر في تكريس تخلف المجتمع، وتجديد أخطائه، وتبديد طاقاته، وتضييع أجياله، والدوران في حلقة مفرغة ـ وإن ترافق ذلك مع سلامة النية والإخلاص، والمزيد من الحماس والتوثب الروحي، في كثير من الأحيان ـ إنه الإخلاص السلبي الذي لا يفتح البصيرة ولا يحقق ملكة الفرقان، ولا تدرك أبعاده ومستلزماته فينقلب إلى مهرب وجداني، وقد يحقق لصاحبه سعادة ومتعة ذاتية تبقى حسيرة وعاجزة عن المساهمة بأي تغيير وأي نهوض بالأمة المسلمة، أو أي شحذ لفاعليتها وحل لمشكلاتها المتراكمة التي تطاول عليها الزمن وهي تنتظر المنقذ الذي يهبط عليها ليملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً وظلماً، وبذلك توقع لنفسها وثيقة الإعفاء من المسؤولية التي تعتبر الحافز والشرط الضروري للفعل الحضاري، والهاجس الدائم الذي يدفع إلى استكناه حقيقة التغيير وامتلاك وسائله، ومن ثم تحقق البعث الحضاري الإسلامي المنشود ... □□

وما نظن أحداً بقدر على الإنكار بأن الأمة المسلمة اليوم تمتلك من الطاقات والإمكانات، ما قد يفيض عن احتياجها، لكن الذي تفتقده: القدرات المختصة والشروط الفنية لتوظيف هذه الطاقات والإمكانات وحملها لتصب في مسارها الصحيح والسليم، إننا ـ من بعض الوجوه ـ كالأطفال الذين تمتلىء جيوبهم بالمال ولكنهم يفتقدون القدرة العملية والعقلية الراشدة لتوظيفه، وكالجاهل الذي يمتلك القنبلة، كسلاح فعَّال، لكنه لا يدري أي شيء عن شروط استعمالها، ولا عن المدى الذي يمكن أن تحققه، ولا العدو الذي يجب أن توجه إليه، إنه والحالة هذه قد يكون أقرب إلى تدمير نفسه من تدمير عدوه. ذلك أنه مالك للطاقة، لكنه فاقد للشروط الفنية في توظيفها واستخدامها ...

ومن الضياع والضلال أن نعتقد أن سبب هذا الضياع والضلال تتحكم به كله أسباب خارجة عن الذات المسلمة، ونظل نلقي بالتبعة على الماسونية والصهيونية والصليبية والإلحاد لنعفي أنفسنا من المسؤولية عن قضايانا، ونتهرب منها بطفولة محزنة.

ذلك أن الشجرة ذات الجذور الضاربة في الأرض، القوية في ذاتها لا تقتلعها الرياح، ولا تجتثها العواصف، إن استمرارية العداوة لهذا الدين لم تتوقف تاريخياً، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة: ٢١٧) لكنها تختلف في تأثيرها بحسب قوة المسلمين الذاتية أو ضعفهم، وغفلتهم أو صحوتهم، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ... ﴾ (النساء: ٧١) وقال تعالى: ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ... ﴾ (النساء: ١٠٢).

والأمر الخطير في الموضوع اليوم أن الأمة المسلمة التي ورثت النبوة ورحلة النبوة وتجربة النبوة من لدن آدم عليه الصلاة والسلام تعيش خارج نطاق كتابها الذي قص عليها وحمل إليها رصيد التجربة البشرية من عوامل قيام الأمم ونهوضها، وسبب دمارها وانقراضها، وكان نداؤه الخالد لها: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (الحشر: ٢) ففقدت الاعتبار وأصيبت بعطالة الإبصار وعدم إدراك البصائر؛ وتعيش خارج سيرة نبيها ﷺ، وتعجز عن تعدية الرؤية وتحقيق العبرة، ولم يبق لها من تاريخها نصيب إلاّ بما يحقق لها من طرب بسبب عظمة يعجز الوريث أن يتلمس أسبابها ...

إن التاريخ في مثل حالنا الذي نحن عليه يصبح عبثاً على الإنسان الكَلّ بدل أن يكون حادياً وهادياً للإنسان العدل ..

من موقع القدوة ١

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (النحل : ٧٦) .

ومن الأمور التي أصبحت حقيقة لا مراء فيها أن نهضة أي مجتمع متخلف لا يمكن أن تتم إلاّ من خلال الظروف والشروط العامة التي تم فيها ميلاده ، وهذا يعني أن أية محاولة للنهوض وإعادة بناء المجتمع الإسلامي الجديد لا يمكن أن تتحقق بالقفز من فوق الشروط الفنية والظروف العامة والبنية الأساسية التي تشكلت خلالها الفكرة الإسلامية والتجربة التأسيسية للمجتمع الإسلامي الأول .

إن مجتمع الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام هو وحده محل القدوة لمجتمع العودة بعد الانسلاخ عن الإسلام : ولقد أدرك الإمام مالك رضي الله عنه هذه الحقيقة عندما قررها في القرن الثاني للهجرة وقد بدأ يلمح نذر التراجع ، بقوله : « لا يصلح آخر هذه الأمة إلاّ بما صلح به أولها » .

إن هذا القول ـ فيما نحسب والله أعلم ـ لا يعني بحال من الأحوال الاقتصار على استحضار القيم والمبادىء والتحقيق في صحتها ونقلها من جيل إلى جيل فقط ، وإغفال الشروط العامة والظروف التي رافقتها وكيفية التعامل معها ، وأصول الدعوة ووضوح أهدافها وفقه مراحلها : إن استحضار القيم لتصبح شعارات ترفع بالمناسبات وتعلن على المنابر ، وتردد بالاحتفالات ، وإن إغفال الظروف والشروط العامة والمناخات التي ترجمتها إلى قيم فاعلة ، وعدم رسم طريق العودة ومراحله بدقة وتدرج يعني مزيداً من الارتكاس والتعثر ، ولا نظن أن أحداً من المسلمين اليوم بات ينكر صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، وخلود الإسلام وصدق مبادئه وقدرته على استئناف حضارة إنسانية وسعادة بشرية ، إلى آخر هذه التعميمات التي أصبحت أقرب إلى المسلمات ومع ذلك لم يتبدل معها الواقع ، إنها شعارات محفوظة ومصدقة من كل المسلمين .

لقد تجاوزت الأمة المسلمة اليوم مرحلة الاقتناع بمصداقية الإسلام وضرورة العودة إليه ، وأصبح المطلوب البحث عن كيفية تطبيق مبادئه ، وتنزيل شرائعه على واقع الناس ، وتجسيد قيمه في حياتهم . وهذا لن يتأتى ما لم نعد إلى الاقتباس من المجتمع الأول . فكيف نخترق الحواجز القائمة ونحدد مراحل رحلة العودة لاستئناف الحياة الإسلامية التي بشرنا بها الخطباء والوعاظ والمتحدثون ؟ وما هي المداخل الحقيقية لشحذ فاعلية الأمة من جديد وتبصيرها بمراحل طريقها ؟ ولا نعني بذلك مزيداً من التوثب الروحي والحماس الملتهب ـ كما أسلفنا ـ والذي قد يكون أفقدنا ـ في كثير من الأحيان ـ الرؤية المتوازنة والحسابات الدقيقة ، ووظف من قبل أعداء الإسلام لتصفية حساباتهم ونحن ما نزال نظن أننا نحسن بذلك صنعاً ؛ ولعلّ في حديث رسول الله ﷺ الذي يرويه زياد بن لبيد دلالة على ما نحن بصدده :

أخرج الإمام أحمد رحمه الله في مسنده ، وابن ماجه بإسناد صحيح من حديث زياد بن لبيد ، قال : ذكر النبي ﷺ شيئاً ، فقال : « وذلك عند ذهاب العلم » قال : قلنا : يا رسول الله ، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونُقرئه أبناءنا ، وأبناؤنا يُقرئُونَه أبناءهم إلى يوم القيامة ؟ فقال : « ثكلتك أمّك يا زياد ، إنْ كنتُ لأراك من أفقه رجل بالمدينة ، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون منهما بشيء ؟! » .

إن ذهاب العلم والدراية والفقه ، وافتقاد ملكة الفرقان ، وغياب الروح الفاعلة ، وعدم إدراك شروط وظروف مجتمع النبوة ، لا يجدي معه استحضار القيم وحفظ النصوص وتحفيظها وانتقالها من الآباء إلى الأبناء والأحفاد !! لقد حذّرنا الله تعالى من السقوط في علل اليهود والنصارى الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها ، قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الجمعة : ٥) إنه حمل القيم ونقلها والعجز عن تمثلها ...

لقد كانت رحلتنا شاقة أدمت أقدامنا ، وسَيْرتنا في دروب مظلمة ، وشعاب وعرة عندما جرينا وراء التغريبيين ، وظننّا أن نهضة مجتمعنا الإسلامي ، أو تأسيس نهضة ، يمكن أن يتم

قبسات

بقيامه على أصول غريبة بعيداً عن الظروف والشروط التي رافقت ميلاد المجتمع الإسلامي الأول . وكَلَونٍ من الافتتان بالغالب ومحاكاته ، حاولنا تأسيس نهضتنا على الأصول الغريبة الغربية فازددنا سقوطاً بتتبع سنن الأمم الأخرى والعدول عن سنننا ، فأضعنا النهضة وأضعنا الأصول جميعاً ... قال رسول الله ﷺ : « لتتبعنّ سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى إنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » .

من هنا فنحن مدعوون دائماً للعودة للتأسي والاقتباس من المرحلة التاريخية التي تم فيها ميلاد المجتمع الإسلامي الأول ـ مرحلة السيرة ـ وإدامة النظر في الظروف والمراحل والشروط التي تم فيها ذلك الميلاد : لنؤسس على ذلك نهوض مجتمعنا من جديد ... إن تحول سيرة الرسول ﷺ عند كثير منا إلى مناسبات وأعياد واحتفالات ومواسم وموالد تنسج حولها الخرافة ، وتمجد فيها البدعة ، وتهزم معها الحقيقة ، وتغيب عنها السيرة الصحيحة وتوليد العزمة الصادقة مؤشر واضح على الهبوط والانحدار ؛ وقد لا تختلف موالدنا الحديثة (من اجتماعات ومناسبات واحتفالات) عن تلك الموالد الخرافية الشعبية من حيث الأثر والنتيجة .

من هنـــا نقـــول ، ونحن على أبواب شهر ربيع الأنور : إن المطلوب من المسلمين الآن أكثر من أي وقت مضى ، إدامة النظر في السيرة العملية ، والقَبْس من مواقع الاقتداء حيث البيان الميداني التطبيقي لِتَنَزُّلِ آيات القرآن على واقع الناس .

لا بـد من تحديـد الظروف والشـروط والمراحـل والخطوات التي تمت فيها ولادة المجتمع الإسلامي الأول ليكون ذلك أنموذجاً لا بديل عنه للنهوض والارتقاء : ولا نريد بذلك مزيداً من الكتب التي تسرد علينا السيرة النبوية ، كمرحلة تاريخية من مراحل تاريخ الأمة المسلمة ، أو مزيداً من الموالد الشعبية أو الرسمية والاحتفالات ، وإنما الذي نعني بإدامة النظر : الدراسة التحليلية التي نستطيع من خلالها أن نمتلك الرؤية الإسلامية الشاملة العملية الميدانية التي تكسبنا القدرة على إنزال النصوص والقيم الإسلامية على واقع الناس : الدراسة التي نمتلك من خلالها الوقوف على منهج أصول الدعوة الإسلامية في العصر الحالي وفقه مراحلها وأهدافها ومقاصدها العامة : لتكون ضوابط للسلوك ، وكوابح لردود الأفعال ، فلا تغيب الأهداف ولا تُفْتَقَد الحِكَمُ من خلال دفقات الحماس ، واهتياج العواطف ، وضغـوط الصور غير الإسلامية على أعصابنا وعدم الإغراق في النظرات المثالية إلى مجتمع الميلاد الأول .

إنه مجتمع البشر الذين يخطئون ويصيبون ويحملون معهم بعض أمراض مجتمعاتهم الجاهلية السابقة عن الإسلام ، ذلك أن النظرة المثالية التي انتهى إليها وأكدها بعض الدارسين أصبحت من العوائق والمثبطات ... من هنا نقول : إن ميلاد المجتمع الأول هو قدوة مجتمع النهوض .

إن النظرة إلى السيرة عند بعض دارسينا ومؤلفينا لا تخرج عن كونها مرحلة تاريخية تسرد حوادثها بالصورة ، وبالطريقة نفسها ، والنتائج نفسها التي تحكم الفترات التاريخية كلها في حياة الأمة ، وعند بعضهم الآخر لا ينظر إليها إلاّ من خلال ما يمكن أن يستنبط منها من فقه تشريعي ، حتى جاءت بعض المؤلفات تسرد حوادث السيرة ثم تُلحق ذلك بمجموعة أحكام فقهية مستنبطة .

إن هذه النظرة لم تقتصر على السيرة النبوية ، وإنما كانت النظرة نفسها إلى آيات القرآن الكريم ، فقد اقتصر بعضهم في ذلك على استنباط الأحكام الفقهية التشريعية ، أو ما سمي بآيات الأحكام التي أوصلها بعض العلماء إلى خمسمائة آية أو يزيد ، وكان آيات الشورى والعدل والتربية ، وسنة انقراض الأمم وبناء الإنسان ، وسنن حكم الحياة والأحياء ليست هي مقصودة في التنزيل ، وعلى الرغم من الاستبحار العظيم والفائدة الكبيرة التي تحصلت من هذه الثروة الفقهية التشريعية ، إلاّ أن الجوانب الأخرى ليست أقل أهمية ، بل قد تأتي من الأهمية في المقام الأول ، إذ لا بد من بناء الإنسان القادر على فهم مناخه وتاريخه وعلاقاته الاجتماعية ، وسنن الحياة والأحياء ليكون بحق محلاً سليماً لتطبيق الأحكام ، فما قيمة تقرير الأحكام بغياب الإنسان ؟!

أما ما يمكن أن يتحصل من فقه حضاري يمكّن من النظر في قيام الحضارات وسقوطها ، والعلل التي تتسلل إلى الأمم وتؤدي إلى

من موقع القدوة ①

انقراضها ، وفقه الحركة التاريخية ودور الإنسان وفاعليته فيها ، والفقه السياسي والإداري والمالي ، والفقه الاجتماعي واكتشاف السنن والقوانين التي تحكم حركة المجتمعات البشرية ، فيكاد الإنسان لا يجد لها المساحة التي تتناسب مع أهميتها وخطورتها ...

من هنا تختلف السيرة - كمحضن اكتمل خلالها ميلاد المجتمع الإسلامي - عن التاريخ الإسلامي بشكل عام ، إنها مصدر للتشريع ومصدر لاستبانة أهداف الدعوة ووسائل العمل ، ومصدر للتربية والإعداد والمجاهدة والجهاد وكيفية التعامل مع الأعداء في الظروف والمناسبات ، ووسائل إيضاح ومعالم هدىً لا بد من استيعابها من حياة ومواجهات الداعية القدوة عليه الصلاة والسلام للمواقف المتنوعة والمختلفة من امتحانات النصر وامتحانات الهزيمة على حد سواء ، لأن الحياة ليست إلَّا مجموعة انتصارات ومجموعة هزائم . والله تعالى يقول : ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (آل عمران : ١٤٠) وقد يكون مستغرباً إلى حد بعيد أن نقول : لا بد من إدامة الدراسة لإيضاح أهداف الدعوة ومقاصدها العامة بعد هذه القرون المتطاولة ، والعودة بين الحين والآخر لاختبار سلامة السير ومدى انطباقه على منهج أصول الدعوة ، وتحقيقه لأهدافها ، وانضباطه بمقاصدها ، والقضاء على الجنوح والخروج الذي يكمن في طبيعة البشر ، والخروج من صور التعميمات والضبابيات التي تساهم بالضياع أكثر من مساهمتها بتحديد الخطوة وتصويب السير ورسم طريق العودة بعد الاتفاق والاقتناع بضرورة هذه العودة ...

وليست السيرة مصدراً للفقه التشريعي فقط ، إنها مصدر للحياة الإسلامية والتعرف على الحلول المنضبطة برعاية الوحي وحراسة السماء .

أما التاريخ الإسلامي فلا يصل بحال من الأحوال إلى هذه الدرجة ، إنه محاولات بشرية تخطىء وتصيب ، إنه ساحة ومختبر للدروس والعبر وليس مصدراً للتشريع ...

ولا شك أن العناية بالسنة ، صحيحها وضعيفها ، صادقها ومكذوبها ، والتأصيل لعلم « مصطلح الحديث » وقواعد الجرح والتعديل حمل لنا الخير الكثير من الحفظ والاطمئنان لهذه الثروة الهائلة من النصوص الإسلامية والأحكام التشريعية ، وسلامة النص الديني من أي تحريف أو تعديل ؛ الأمر الذي افتقدته الأديان السماوية السابقة عن الإسلام .. لكن يبقى المطلوب أن تأخذ السيرة العملية القدر نفسه من الدراسة والفقه ، لأنها المحل الرئيس لفقه الحركة والسلوك .

إن علم « مصطلح الحديث » وكل القواعد والدراسات التي أوصلت إلينا السنة صحيحة ، كانت مقدمة لا بد منها ، لكن لا يجوز أن تنتهي المهمة عند ذلك الإثبات ، بل قد يكون هذا الإثبات وسيلة للوصول إلى الثمرات والأهداف التي من أجلها كان هذا الإثبات ؛ وهي صياغة السلوك الإسلامي وفق مقتضيات الشرع .

والوقاية من أمراض الأمم : المفاخرة بالتراث والعجز عن تمثله والإفادة منه ، والمفاخرة بالماضي والعجز عن إسقاطه على الواقع وإضاءته للمستقبل ، إنه الانتصار العاطفي الذي لا يسمن ولا يغني من جوع .

إن أصول الدعوة ووسائلها وأهدافها ومقاصدها وتحديد الفهم الصحيح لها مركوز في السيرة العملية ، فهي المعين الذي يمد الدعوة ويحصن الدعاة بدروس الصبر وضوابط الظفر والانتصار ، ولعل في توقف الرسل واستمرار الرسالة وخلودها معنىً واضحاً على استمرارية المعاني والعبر لتستوعب وتشمل كل المواجهات التاريخية حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، إنها الحقائق المجردة التي تتجاوز حدود الزمان والمكان ؛ وهذا يعني من بعض الوجوه : القدرة الإسلامية على تنزيل وإسقاط ذلك على الحركة التاريخية والتحكم بمسارها في كل زمان ومكان من خلال الرصيد الكبير من التجارب والدروس التي شهدها عصر الرسول ﷺ .

وسوف نعرض في العدد القادم - إن شاء الله - لبعض المواقف من السيرة العملية وحياة الأصحاب ، ونلقي عليها بعض الأضواء التي نرجو أن تكشف لنا شيئاً من الطريق ، وتحدد لنا بعض المعالم من خلال المعاناة والتعثر التي يعيشها مسلم اليوم : ولله الأمر من قبل ومن بعد .